تحت قبّة مسجد الافتقار

كان " يوسف " يتحلّق مع زملاء الحلقة حول أستاذهم "بلال"، يتجمّع مع أبناء القرية كلّ يوم بعد صلاة المغرب في هذه الحلقة، يحفظون ما يسّر لهم ربهم، ويراجعون ما تيسر. يوسف، ابن السبعة عشر ربيعاً، شابٌ في مقتبل الحياة، له عينان تلمعان ذكاءً، وقلبٌ وقّادٌ يشعّ نشاطاً، وثغرٌ يقطر سُكّرًا فلا تخرج من سوى أحلا الكلمات .. "كلماتٍ ليست كالكلمات" كما يقول نزار. في آخر الأيام، انتبه "سعد" إلى أنّ صديقه يوسف لم يعد يملأ المكان بحضوره، كان يأتي بجسده فقط، يمكث في الحلقة وبين يديه مصحفه الأخضر، ويبقى سارحاً بفكره، يثقب المدى بعينيه الحادتين، كأنما يبحث عن شيء هناك في الخلف، لا تراه الأعين

كان بيت يوسف -الذي ورثه من والده- يتكئ على مرتفع من الأرض، تُحيط بالبيت أشجار الذرة الذهبية، بينما تُظلّله شجرة توتٍ عملاقة، متشعبة الأفرع، متينة الأغصان. في بيتٍ من دورين، كانت غرفة يوسف في الأعلى، بينما كانت أمه "أفنان" تنام على ضمير مرتاح في غرفتها في الأسفل، مجاورةً لغرفة المعيشة، وكان هذا كلّ البيت، ثلاث غرف. يعود يوسف إلى البيت بوجهٍ كالحٍ صفعه الهمّ، يدخل على أمه وهي تُعد عشاءه، يُقبّل ما بين عينيها، يكتفي بابتسامةٍ مختلقة، ثم يصعد الدرج إلى غرفته، يلتفت في منتصفه نحو أفنان : "يمّه، دعواتك". يستلقي يوسف على سريره، يُخرج جواله، يتصفحه قليلًا، تصطاده الشبكة العنكوبتية في فخها، تأخذه من صفحةٍ إلى صفحةٍ إلى صفحةٍ، يرتكب الخطيئة مثل كلّ ليلة، ينام عليها وهو يبكي.

استيقظ يوسف على عفن الإثم، اغتسل بالماء، يتذكر كيف كان أثر هذا الماء بعد أول خطيئة، كيف كان يغسل عن قلبه سوادها. الآن يمر الماء على قلبه فلا يكاد يلامسه من السواد الذي يغشاه، تصلّب قلبه فهو كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار. كان يوسف يتوغل في غابةٍ مهلكة، لم يستطع حجز نفسه عن الاستمرار في سلوكها، وكلما توغّل أكثر؛ كلما انقبضت نفسه أكثر، كلما تسمّرت عينيه في المدى أكثر، وكلما زاد قلق سعد عليه. بعد صلاة العصر في مسجد الافتقار صعد يوسف على شجرة التوت العملاقة، حاملاً مصحفه الأزرق الصغير، حيث موعده اليومي مع سعد لمراجعة القرآن قبل الذهاب إلى حلقة الأستاذ بلال. صعد سعد إلى أعلى الشجرة حيث يوسف، مستنداً إلى جذع الشجرة الضخم، يُدلي ساقيه من إحدى الأغصان، مسمراً عينيه في المدى، شعر سعد بضرورة مصارحة صديق عمره بالقلق الذي يعتصره، بخوفه الشديد على هذا الشرود الذي يغشاه. - اممم يوسف .. أنا أشعر بأنه من الواجب علي .. - يوسف مقاطعاً: سعد . - سعد بكل انتباه: نعم! - انظر إلى هذه الشجرة العملاقة، الضخمة، هل تراها جميلة؟ - جداً جداً يا يوسف، ما أروعها وهي تتكئ على غرفتك، نافذة غرفتك التي تُطلّ على وجهها البسّام، أحسدك عليها يا يوسف! - يوسف وهو لم يزل يُسمّر عينيه في المدى: هذه الشجرة جميلة لأنها تُثمر هذه الفاكهة الحلوة، التوت. تخيل يا سعد لو أنّ هذه الشجرة لم تكن سوى هذا الجذع الضخم بنتوءاته المؤذية، ومجموعة من الأغصان المتشعّبة، لا توت سكريّ الطعم، ولا ورقٌ بلون الجنّة، هل ما زالت الشجرة جميلة؟ - أنا قلقٌ عليك يا يوسف، ما بك؟ يكاد قلبي ينخلع من مكانه وأنت تسألني هل شجرة التـ - أجبني يا سعد! هل ما زالت جميلة في نظرك؟ - لا. - بعينين ينهمر منهما الدمع يلتفت يوسف لصديقه: أنا شجرة توت يا سعد! أنتم تحبونني لأنني أُظهر لكم توتاً، بينما أنا جذعٌ ضخمٌ من القبح المتجذّر في وادي الخطيئة. أنا أغصانٌ متشعبةٌ في جوٍّ كالحٍ، تُشعرك بالثقة حتى إذا ما استندت إليها فاجأتك بهشاشتها، أنا أتعفّن يا سعد!

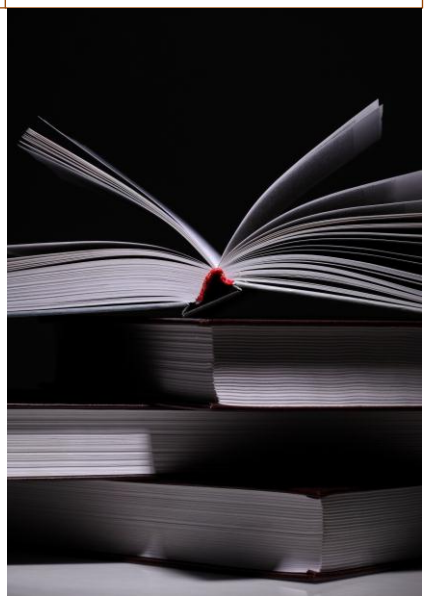

أشار سعدٌ على رفيقه بأن يفتح قلبه لأستاذه بلال؛ ذلك أن الأستاذ كان قريباً من طلابه، وكانوا يشعرون بأنه منهم وهم منه، وأيضاً لأنه أنضج منهم، وأكثر خبرة بالحياة. وكان يوسف قد جلس جلسةً أولى مع الأستاذ بلال، حكى له قصة "شجرة التوت"، ثم سقى كتف أستاذه بماء عينيه. كان من عادة يوسف أن يذهب إلى مكتبة القرية، كانت مكتبة دائرية، ترتص على جدرانها رفوف بنيّة اللون، وبداخلها أكثر من عشرة آلاف كتاب، وفي وسط المكتبة مجموعة كبيرة من الطاولات والكراسي مجهزة لرواد المكتبة. كانت الزائر الدائم هو يوسف، ويكاد أن يكون الوحيد، حيث يكتفي أهل القرية بالتتلمذ على يد الحياة، دون أن يجدوا في مكتبتهم ما يسدوا به رمقهم. في يوم من الأيام، دخل يوسف إلى المكتبة، وبدأ في القراءة في كتاب ما، ووجد فيه سطوراً حول ذنبه الذي يأكل من روحه، كان تحقيقًا لحكمه الشرعي، فوجد في السطور ما يجعل من ذنبه من قبيل المباحات، حمل الكتاب وأسرع إلى أستاذه بلال في مسجد الافتقار، حيث يقضي غالب وقته هناك، دخل عليه وهو يتأبط كتابه، ووضعه بين يدي أستاذه: - أستاذ بلال، هذا كتاب فيه كلام عنـ ... - اششششش، يوسف، لا تُخادع نفسك، لإن صح أن الإباحة هي حكم ما تجد، فإن ما يؤدي إليه هو من الكبائر بكل تأكيد. يوسف، كم مرة هتكت حرمة نهار رمضان بسبب هذا (المباح)؟ كم مرة ألجأك خجلك من الناس، أن يغيب خجلك من الله فتصلي بلا طهارة بسبب هذا (المباح)؟ كم مرة شاهدت مقطعاً، أو نظرت إلى صورة، أو قرأت نصاً فاضحاً بسبب هذا (المباح)؟. يوسف، لأن تبقى مضطرب الروح، مسمّراً عينيكَ في المدى، تجد نفسك أشبه الأشياء بشجرة التوت=خير لك من أن تجد في ورقة لا تعرف حالك وفعالك طوق نجاة من عذابك هذا. يوسف هذه الحالة التي تُدافع فيها شيطانك، فيغلبك مرة، وتغلبه مرتين، وتلجأ إلى ربك، وتجد في صدرك حركةً ودوياً، وخجلًا من ربك=هذا وغيره هي صورة من أروع صور العبودية لله، الله يريد هذا! يوسف، قد كتب ربك الذنب على البشر من أبيهم آدم إلى آخر من يخرج من رحم أمه، والله أراد أن يغالب المرء شهوة نفسه، وهوى صدره. يوسف، لم تجد بسبب ذنبك ما تجد؟! أنت تجد هذا لأنك تشعر أنك خالفت أمر ربك، هذا الشعور عبودية عظيمة يا حبيبي، لا تغتاله برصاصة (المباح)!

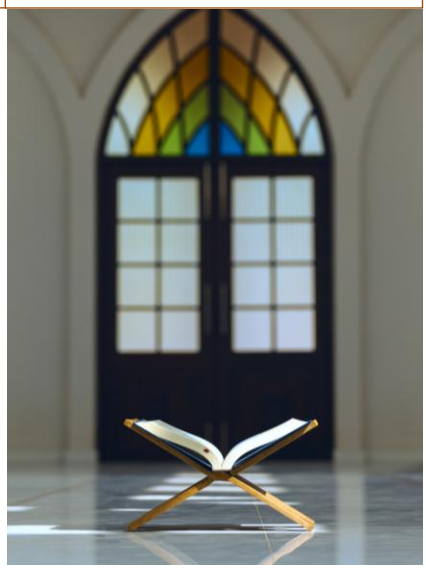

في صلاة العشاء، قرأ إمام مسجد الافتقار آياتٍ من سورة يوسف ... ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ...﴾ ، تتجمع أهاليل الدمع في كوة عينيه، تحجب بصرَه، وتكشفُ لبصيرته الرؤية، ثم تنهمر على وجنتيه المتورّدتين، كأنما كانت الدموع تغسل الدنس الذي كان يُلطّخ بصيرةَ يوسف. ينشج يوسف، ترتجفُ أعضاءه خجلًا من ربه الذي أحسن مثواه، خيبةً على نفسه التي لم تعد تؤثّر فيها براهين ربّه، لقد كان يقول في يومٍ من الأيام: معاذ الله .. لكنها لم تعد تتحرّك على لسانه بعد أن تكدست على قلبه أكوامٌ من الآثام، جبالٌ من الخطيئات، مئاتٌ من صور الرذائل، يتمنى لو قدر أن يتخلّص منها بضغطة زر .. لكنه يعلم أن الإدمان لا يُعالج بسهولة، وأن الاستمرار فيه يعني التعفّن، والموت طبعًا .

كانت أفنان تغزل بيديها في صالة البيت، أمام المدفأة، حيث تنزف ما تبقى من عمرها هناك، تقتات على التأمل أمام النار؛ ﴿نحنُ جعلناها تذكرةً ومتاعاً ...﴾، يدخل يوسف إلى البيت بعد أن أزال عن وجهه أثر صلاة العشاء؛ كان يُحبّ أن تبقى أمه طيّبة البال، لا يكدّر صفو عيشها شيء من وعثاء الحياة، قبّل رأسها وصعد إلى داره. استلقى على فراشه، حاول أن ينام قبل أن يقع فى فخ نفسه، لكنه ما لبث أن أخرج جواله، ووقع فى شباك العنكبوت. كانت النكاتُ السوداء أقوى من أن تزيلها دمعةٌ عابرة، حاول أن يهرب من ضميره إلى النوم، لكن لم يستطع، ترنّ فى أذنه كلماتٌ من أستاذه قالها له بعد أن سأله متى يستريح؟ فقال الأستاذ بلال: "وكيفَ ينامُ، وطيفُ الفجورِ، ورائحةُ الإثمِ فى المضجعِ!" . عادَ إلى أمه أمام المدفأة، جلس على الكرسى بجانبها، نظر إليها ولم ينطق بحرف، توقفت عن الغزل ورفعت رأسها إليه، من ثقبين صغيرين فى رأسها نظرت إليه، كأنما كانت تخترق صدره بنورين ينبعان من عينيها، فيكشفان أسراره التى تبيت فى صدره، بعد أن كانت أسرار يوسف لا تبات إلا فى صدر أفنان! قالت أمه له: - يوسف. - نعم يا أمى. - عندما أشاهد هذه النار، أتذكّر الشيطان! يقترب يوسف من أمّه، ويصغى بأذنيه وهو يقول: ولمَ ؟ - هذه النار يا ولدى هى جزء من سبعين جزء من نار الآخرة، من جهنّم. - طيّب ؟ - كان والدك -رحمه الله- يقرأ دائماً على المحتضر سورة يس، وعندما انتصفت روحه فى الدرب بين الدنيا والآخرة قرأتُ عليه سورة يس، فى مقطع منها بكيتُ حتّى رقّ لى أبوك، وضغط بيده على يدى وهو يبتسم، كان يعرف أن موعظةً قرآنيةً اخترقت سواداً فى قلبى. - ما هو هذا المقطع يا أمى ؟! - اسمع يا يوسف. وبدأت والدته ترتّل بصوتها الطاعن فى الحياة: ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم، ولقد أضل منكم جبلًا كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون، هذه جهنم التى كنتم توعدون، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾. - كلما رأيت النار يا ولدى، تذكرتُ "جهنم"، فإذا تذكرتُ جهنم تذكرتُ هذا المقطع من سورة يس، تذكرت أن الله عهد إلينا ألا نطيع الشيطان، وأتذكر أنه قد أوضح لنا أنه عدو مبين؛ فأقابله وساوسه وخطواته مقابلة العدو، قبل أن يختم الله على فمى، وتتكلم يدى، وتشهد قدمى بما كسبتُ من آثام، وخسرتُ من طاعات. من أجل ذلك يا يوسف لا أفارق نارى هذه، ضع هذه النار نصبَ عينيك يا ولدي، قبل أن تسمع "جهنم" وهي تقول: هل من مزيد ؟!

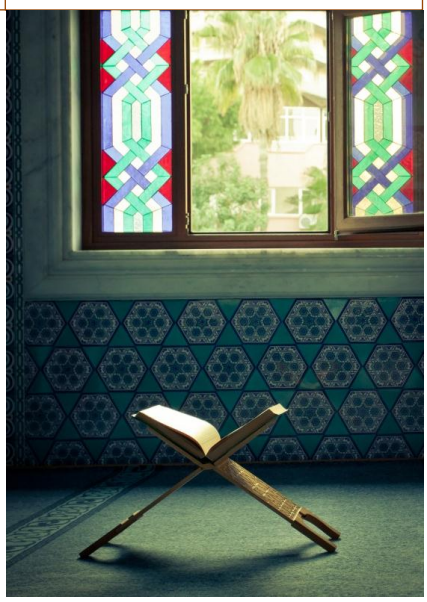

بعد صلاة العصر ، توجه يوسف إلى بيته الأنيق، تجاوز حقل الذرة الذهبية، وصعد إلى أعلى شجرة التوت، استند إلى جذعها المتين، وأرسل قدميه لتتأرجحا في الهواء المعطّر بالتوت. ما لبث أن وصل سعد إليه، تسلّق الشجرة الضخمة، وجلس بجواره، وبدأ سعدٌ في قراءة الجزء المطلوب منه في حلقة مسجد الافتقار، كان المقطع من سورة البقرة، وفي منتصف الصفحة قرأ سعدٌ قوله تعالى: (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). أكمل سعدٌ قراءة ما عليه، بينما عاد يوسف إلى عادته، سمّر عينيه في المدى، وصار يُفكّر في هذا الوصف العجيب ﴿وأحاطت به خطيئته﴾، يا الله! أن تفعل السيئة شيء، وأن تُحيط بك شيءٌ آخر، أن تجعلك في إطارها، تتحرك بداخلها، تُقيّدك بحبالها حتى لا تخرج عنها، ولا تبتعد إلّا بالقدر الذي يضمن عودتك إليها ... يا الله! تخيّل يوسف عشرات الصور وهي تُقيّده، عشرات المقاطع وهي تُوثق قدميه بحبالها، عشرات النصوص الفاضحة وهي تبني من حوله أسوارها، تلك الأيام الرمضانية التي ما صامها بسبب تعفّنه بهذا الذنب، هاهو يرى الخطيئة وهي تُحيط به، تمنعه من الابتعاد عنها، كيف سمح لها بأن تُحيط به؟ كيف فعلتها في غفلةٍ منه؟ يا للذنب الذي نُدمنه .. إنه يملكنا ولا نملكه! أو هكذا نتخيّل! - يوسف! - نعم يا سعد. - أنفك ينزف !

استيقظ يوسف على سريره المبلل بماء الورد البارد، عند رأسه كان يجلس طبيب القرية، وعند قدميه كانت أمه أفنان، حيث كانت تدلكهما دون معنى، بينما كان الأستاذ بلال وصديقه سعد يمكثان على جانبي السرير. كان قد أُغمي على يوسف بعد أن نزف إثر تخيّله للخطيئة وهي تُحيط به، ما إن طرفت عينا يوسف حتى غادر الطبيب بعد أن أوصى أفنان بعدد من الأمور، وشيّعته أفنان إلى حقل الذرة، ثم عادت إلى مغزلها أمام النار، بعد أن تركت يوسف مختلياً بأستاذه وصديقه. دمعت عينا يوسف، بينما كانت يده تضغط على يد الأستاذ بلال، ربت سعد على كتف صديقه وقال: - يوسف، بم تشعر ؟ بصوتٍ ممزقٍ بالدمع رد يوسف: أشعر بأني أضرب في التيه، أعرف بأني في أسر الذنب، لكني لا أعرف من أين أبدأ كي أتخلص منه، سعد! أستاذي بلال! أرجوكما، من أين أبدأ؟! اقترب الأستاذ بلال من يوسف، وأحاطه بذراعه، بينما كانت الابتسامة ترتسم على شفتيه، قال ليوسف: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير، عُوداً عوداً. فأيُّ قلب أُشربَها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على قلب أبيضَ مثلِ الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبادّاً كالكوز مُجخّياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشربَ من هواه". يا يوسف، ما وصلت إلى مرحلة إحاطة الخطيئة بك في يوم وليلة، بل إنها عُرضت عليك عوداً عوداً حتى كوّنّ الحصير، وإن قلبك لم يزد السواد فيه هكذا فجأة، لكنك استهنتَ بالنكت السود الأوائل حتى اجتمعن عليك. يا يوسف، إن نقطة البداية أن تتخلص من هذه النكت السوداء، نكتةً نكتةً، وتستبدلها بثياب البياض، حتى يصير قلبك أبيض مثل الصفا. - وكيف يا أستاذ ؟! - يا ولدي، يا يوسف، إنك لن تعرف كيف تفوز في معركتك حتى تعرف نقاط قوتك ونقاط ضعفك، ونقاط قوة عدوك ونقاط ضعفه. إن نقاط قوتك تكمن في هذه الرغبة الجارفة في التوبة والأوبة، والإحساس الصادق بالذنب والخطأ، وإن نقاط ضعفك تكمن في فراغك، ووحدتك، والذئب يا ولدي لا يأكل من الغنم إلا القاصية! يا حبيبي يا يوسف .. ثق بأنّ جراحك العميقة هذه، سيتسلل منها النور !

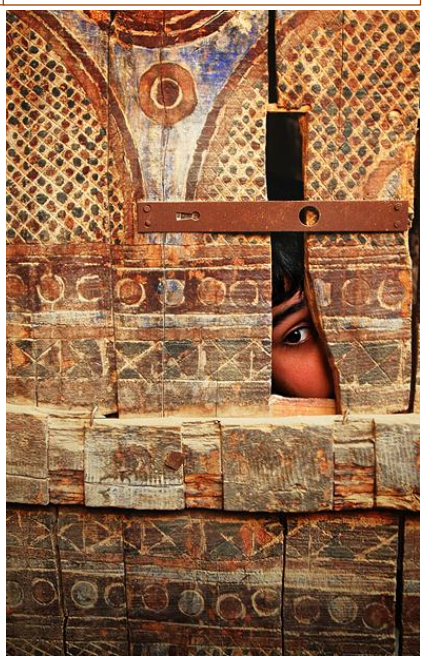

بعد صلاة الفجر عاد يوسف إلى أمه أفنان، وهي تغزل أمام النار، جلس على الكرسي العتيق بجانبها وهو صامت. كان مذياع أفنان الأثير يصدح بصوت القارئ المصري: مصطفى إسماعيل، كان يقرأ من سورة النور، تذكر يوسف أستاذَه بالأمس وهو يقول له: "ثق بأنّ جراحك العميقة هذه، سيتسلل منها النور!" ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، وفي سورة النور قال الله: ﴿الله نور السماوات والأرض ...﴾، لكن آيةً واحدةً بصوت مصطفى إسماعيل توقّف عندها يوسف كثيراً، كأنما كان ينتظرها ليبدأ في رحلة العلاج، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، صعد يوسف مسرعاً إلى غرفته، متجاوزاً سريره فتح النافذة وقفز منها إلى شجرة التوت العملاقة، تعلّق بأغصانها قبل أن يستند إلى جذعها الطاعن في السنّ، وبقي يفكر في الآية ويتدبرها، هذا الأمر بغض البصر لم علّله الله بـ(ذلك أزكى لهم) ؟ كان سعدٌ في طريقه ليوسف ليطمئن عليه، وعندما لمحه في أعلى الشجرةِ صعد إليه وعلامة الاستغراب تسبقه، قال سعد: - يوسف! لم صعدت إلى الشجرة في هذا الوقت؟ ملتفتاً إلى سعد، قال يوسف: اسمع يا صديقي، اليوم ولج النور من جراحي العميقة، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .. سعد لماذا (أزكى لهم) ؟! - لأن الصور تقتات على ذاكرة الإنسان، وتعشعش في نوافذ قلبه حتى تحجب النور عنها، الصور يا يوسف هي سكين الإثم التي لا تقتلك؛ ولكنها تجرحك جرحاً لا يتوقف النزيف منه، فإما أن يقتلك هذا النزيف، أو تدرك جرحك بما يُبرئه. كف البصر عن النظر إلى الحرام يعني أن النور سيصل إلى نوافذ قلبك، ومنافذ روحك، يعني أن نفسك قد بدأت تتزكى/تتطهر، أن قلبك المغلّف بالنكت السوداء قد قبض على أول أدوات التطهير! كان عينا يوسف تفيضان بالدمع على خديه المتورّدين، بينما كانت حروف كلمة (يارب) تتكئ على شفتيه .

صار يوسف لا يبقى في غرفته وحيداً إلا إذا خارت قواه وأراد النوم، كان يقضي يومه بين التحضير للحلقة على شجرة التوت، وحفظ القرآن تحت قبة مسجد الافتقار، والقراءة في مكتبة القرية، وممارسة الرياضة في الليل مع صديقه سعد قبل العودة إلى البيت، فإذا دخل البيت جلس مع أمه أفنان أمام المدفأة، هي تغزل، وهو يحدثها عما فعل هذا اليوم، حتى إذا بدأ النعاس يسرق الكلمات من فمه، قام إلى غرفته بعد أن ترك جواله بالأسفل، ثم ينام بعد أن يتوضأ ويقرأ أذكار النوم. في يوم من الأيام، عاد يوسف إلى غرفته بعد أن داعب النوم عينيه، لكنه أخذ جواله معه، فتح جواله وسقط في خيوط العنكبوت! "وكيف ينامُ، وطيفُ الفجورِ ورائحةُ الإثمِ في المضجع!" قام من سريره وهو يحسّ بالخيبة، فتح النافذة وسمّر عينيه في المدى الليلي، وبكى وهو يشعر بالفشل من محاولته لتزكية قلبه .. ما لبث أن تذكر كلمات أستاذه بلال: "يوسف هذه الحالة التي تُدافع فيها شيطانك، فيغلبك مرة، وتغلبه مرتين، وتلجأ إلى ربك، وتجد في صدرك حركةً ودوياً، وخجلًا من ربك هذا وغيره هي صورة من أروع صور العبودية لله، الله يريد هذا!". أغلق يوسف النافذة، وتطهّر تحت الماء، وصلى لله ركعتين تحت سكون الليل، وفوق نجوم روحه، وقال: يارب) !

تمت :)